

محاولات في الأدب القومي

منذ أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن نشأ حوار بين كتابنا ، وفي مقدمتهم كبارهم ، عن هذا العصر الذي نتخطاه منذ الثورة العربية إلى وقتنا الحاضر : أهو عصر ترجمة أم عصر تأليف . وهو حوار من نوع الحوار الذي نشأ بين القديم والجديد في الأدب ، يرجع إلى مثل أصله ويقوم على مثل أساسه . وأصل هذا الحوار وأساسه في الحالين نضال ما بين الحضارتين : حضارة الغرب الحاكمة اليوم ، والحضارة الإسلامية التي حكمت العالم زمناً ثم جاء دورها في الاستجمام انتظاراً للبعث . فأنصار الجديد لا يرون مفراً من أن تغزو حضارة الغرب أم الشرق ، فهم يريدون أن يهيئوها لهذا الغزو حتى تستقبله مستعدة لتمثل آثاره متهيئة للوقوف أمامه في شيء من الكرامة والعزة . وأنصار القديم يقدرّون ما آل إليه حال الحضارة الإسلامية ، وهم يخشون عليها كل جديد أن يفسدها وأن يقضى عليها . لذلك يريد أنصار القديم هؤلاء أن يظل العلم وأن يظل الأدب والتفكير كما كانت جميعاً في العصور الماضية . وهم يريدون ليكفلوا هذه الغاية أن يكون العلم والأدب وأن تكون الحياة العقلية والفكرية ملكاً لهم ، يقولون فيما شاءوا منها هذا حلال وهذا حرام ، وأن تكون لهم سلطة كسلطة الكهنة أيام قدماء المصريين تمكنهم من الحكم على من خالفهم بالقتل أو بالموت الأدبي . وهم بهذه الغاية يريدون أن يسبغوا على أنفسهم قداسة روحية وعقلية تلزم كل من سواهم أن يتبعهم . وهم ليسوّغوا موقفهم هذا يدّعون بالسلف الصالح ، ويدعون أنهم وارثو تراثه ، وأنهم

باسم هذا السلف يحاربون من شاءوا حربته بأنه خارج عليه وعلى تعاليمه .
ولا ريب أن في تعاليم السلف الصالح كثيراً من الحق . ولو أن خلفاءه
هؤلاء قالوه بخير مما يقولونه اليوم لازداد جانب الحق فيه وضوحاً وجلالاً .
لكن أنصار القديم يريدون أن يقولوا هذه الحقائق بلغة وأسلوب فيهما من السقم
شئ كثير ، وأن يضيفوا عليها ترهات وأوهاماً ، وأن يفرغوها مع ذلك
في قالب رسمي لتصبح في حماية الدولة وليسغ عليها القانون من القداسة
ما يعاقب معه مخالفتها .

أما أنصار الحديث فيريدون أن يكون التفكير حرّاً والعلم حرّاً والرأى
حرّاً والتعبير عنه حرّاً ، وأن تمتد الحرية في هذه الناحية إلى أقصى الحدود .
وهم قد جعلوا سبيلهم ، أول أمرهم لتثبيت هذه الحرية ، أن ينقلوا عن
الغرب وأن يترجموا علمه وأدبه وآراءه . وما دام كتاب الغرب وأدباؤه
ورجاله هم أبطال هذه الحرية وحملة لوائها ، فيجب أن ينشر هذا اللواء
في الشرق كما هو منشور في الغرب ، ويجب أن نستعير من أساليب
الغرب في الكتابة وفي التفكير ، ويجب أن نؤمن بالحقائق العلمية التي
يذيعها كتاب الغرب وفلاسفته ، ويجب أن نواجه بهذه الأسلحة القوية
الحادة جمود القديم حتى تحطمه ثورة الحديث عليه ، فنكون من بعد
ذلك أحراراً نعم من حريتنا في بحبوحة السعادة العقلية والفنية ، ولا يقف
هؤلاء الكهنة بمزاميرهم المملولة يفسدون علينا حياتنا . ويجب من أجل ذلك
أن ننسى القديم كله ، وأن نقيم مكانه من علم الغرب وحضارته وتفكيره
جديداً .

شئ من التمحيص يكشف عن أن جمود القديم كل هذا الجمود ،
وثورة الحديث كل هذه الثورة ، إنما دفعت إليهما حرارة النضال ، وأنهما
ما كانا يندفعان إلى الحدود التي اندفعا إليها لولا هذا النضال . وقد بينا

في الفصل السابق أن الخصومة بين القديم والحديث كالخصومة بين الوارث والمورث غير ممكنة ؛ لأن الحديث ينطوى على شيء من القديم بل على أكثره ، والقديم لا يمكن أن يتصل بقاءه إذا هو لم يتصل بالحديث ولم ينتشر في أرجائه . أليس فخار الأمم بماضيها لا يقل عن فخارها بحاضرها ؟ ألسنا في مصر نفاخر بالفراعنة وبالعصر الإسلامي أكثر مما نفاخر بالعصر الحديث ؟ فمحال إذن أن نتصور حديثاً لا يتصل بالقديم الذي أثمره ، أو نتصور قديماً لا يتطور مع الحديث وينضم إليه . فإذا اتصل القديم والحديث وتضامنا نشأت عن ذلك حيوية قوية وروح معنوية نشيطة هي التي تقوم أساساً لكل حضارة من الحضارات ، وبدونها تتداعى الحضارة وتنهيار ، ويضطر أهلها إلى استعارة حضارة غيرهم والعيش في كنفها .

بهذا الروح حاولت منذ سنين عدة أن أكشف عن بعض جوانب مصر القديمة ، وأن أسلكها سبيل الأدب القومي ، وأن أحقق بذلك بعض ما اقترحت على مس سلكك كاسلنز مما أشرت إليه في فصل الأدب القومي . وقد بدا لي في وقت ما أن أجعل من بعض عصور مصر الإسلامية موضع هذه الدراسة ، وكانت الحروب الصليبية أشد ما استهواني من هذه العصور . لكنني وقفت يومئذ متردداً : أفأقدم فأبحث فأولى البحث فأقدم للجمهور ثمرة بحثي في صورة من صور الأدب القومي ، فإذا حركة مهاجمة عنيفة تفاجئني من غير أن تزن بالقسط ما إليه قصدت ، متأثرة في ذلك بخصومة سياسية أو غير سياسية مما أشرت إليه حين الكلام عن فتور القصص ! من الخير إذن أن أبحث عن ميدان لا يعنى بمهاجمة الباحث فيه أحد . وهو بعد ميدان طريف يلذ بحثه ويلذ اتخاذه مادة لأدب قومي شهي الثمرة خصب غاية الخصب . وليكن هذا الميدان ميدان الفراعنة وآهتهم . ولنطلق

لحرية الأدب غاية مداها في تصوير حديث هؤلاء الآلهة ، مستمدين أخبارهم من مختلف مصادرها ، موازين بينهم وبين آلهة الإغريق الذين ألهموا من فوق الأوبل حضارة أوروبا الحاضرة .

وقد بدأت مباحثي عن أبيس العجل الإله ونشرتها ، فلم أجد من أحد نفوراً منها أو زوراً عنها ، مما أثبت لي أن في النفوس إلى هذا الأدب القومي ظمناً ، وأنها صادية لورده إذا هي وجدت من يقدمه إليها . وكنت قد جعلت بحثي عن أبيس في صورة قصة لإخوان ذهبوا إلى المتحف المصري فوقفوا أمام تمثال أبيس ، وجعل أحدهم يقص عليهم من تاريخ عبادته ومن الأساطير الميثولوجية التي أحاطت به شيئاً غير قليل . ولأميز هذا المحدث عن بقية أصحابه دعوته نجى أبيس . وكان من بين هؤلاء الأصحاب شاب وخط الشيب رأسه قبل أن تؤذن السنون بهذا البياض في الشعر ، فدعوته الأسيب جعلت منه رجل صلاح وتقوى . وكان من بينهم شاب غير مؤمن بادئ الرأي بعبادة أبيس وأساطير الميثولوجيا المصرية القديمة ؛ فاكفيت تمييزاً له عن إخوانه بأن أطلقت عليه اسم الشاب . وقد ظل الإخوان في مناجاتهم لأبيس وفي مناقشة النجى أقواله زمناً ، ثم خرجوا فانطلقوا مارين بشكنات قصر النيل إلى فندق سميراميس ليتناولوا الشاي فيه إجابة لدعوة أحدهم الذي تسمى من بعد باسم الذي دعانا إلى الشاي . فلما آنست ظمناً النفوس إلى هذا الأدب القومي فكرت في متابعة بحثي . وما دام القوم قد دعوا إلى الشاي في سميراميس فليكن حديثنا بعد أبيس عن هذه الملكة الإلهة التي جلست على عرش بابل والتي غزت مصر وحكمتها زمناً . وتحدث القوم وهم في بهو الفندق وقد جلس إلى جانبهم جماعة من السيدات والسادة المتقبعين ، من بينهم فاتنة ذات دل ساحر عبث بالأسيب أشد العبث وبدله من ورعه وتقواه جنون الهوى وفتك اللوعة ، وجعله يسائل

في حديث القوم عن سميراميس مقدساً للجمال حيث يكون ، سعيداً بحكم النساء الرجال ، سامياً بشأنهن إلى ما استهوى إليه رقة الفاتنة وما جعلها تنزو إليه بنظرات معسولة زادته هوى ووجداً . وفي خلال ذلك كانت قصة سميراميس تُقص بدقة تاريخية تزيد الفاتنة إعجاباً ودلالاً . ونشرت هذه القصة أيضاً وكنت لما أطع كتابي « في أوقات الفراغ » . وقد وجدت من الجهد في كتابة هذين الفصلين بعد التدقيق في بحثهما ما جعلني أشك كل الشك في وقتي أهو يسمح بمداومة البحث والكتابة وتدوين « حديث الآلهة » على ما كنت قد اعتزمت أن أسمى الكتاب الذي يجمع بين دفتيه هذه الأساطير ؟ لذلك نشرت حديث أبيس وحديث سميراميس في كتابي « في أوقات الفراغ » . لكن هذا البحث استهواني من بعد ، وعاد يجذبني إليه بقوة زادا إمعاناً تكرر زيارتي للأقصر وأسوان ومشاهدتي مختلف آثار الفراعنة في وادي الملوك وفي صحارى مركز الدر وجباله الممتدة ما بين أسوان وحلفا . وإجابة لدعوة أجدادنا وآلهتهم عدت أبحث ودونت حديث إيزيس وهاتور وأفروديت . وفي هذا الحديث يتصل البحث على لسان نجى أبيس ، والشاب ، والذي دعانا إلى الشاي ، والأشيب ، وفاتنة سميراميس ، ويتصل به حديث هوى وصباية كنت أرجو أن يظل متصلاً تباركه آلهة مصر القديمة كلها مجتمعة . لكنني عدت فوفقت من بحثي عند هذه الفصول الثلاثة التي تتصل أوثق اتصال بفصلي أبيس وسميراميس وتتابع حوادثهما . ولولا ما سبق لى من نشر هذين الفصلين لكان موضعهما ولا ريب هنا في هذه المحاولة التي قمت بها في سبيل الأدب القومي . أما وقد سبق نشرهما فإنني أكتفي بنشر فصول إيزيس وراعية هاتور وأفروديت هنا ، راجياً أن تعود إلى الآلهة الأقدمون تحدثني وأحدثها وتوحي إليّ ما بقى من قصة الأشيب وفاتنة سميراميس . ولست كفيلاً بأن تستجيب الآلهة

إلى دعائى وقد اتجه ذهنى واتجه روحى وجهة جديدة فى البحث ، وفى بحث ليس دون بحث الآلهة الأقدمين مشقة ، ولكنه أجلُّ منها مقاماً وأروع فيما ينطوى عليه من حق ونور وجلال وجمال .

وأعتقد أن الذين يعنون بمطالعة الفصول الثلاثة التى تلى هذا الفصل سيقدرّون ما كان للفراغة الأقدمين من حكمة وفلسفة قويتين عميقتين محيطتين بالحياة محبتين إياها أشد حب وأخصبه . ولعل منهم من يتابع هذا البحث الذى بدأت فى الصورة التى تلذّه من صور الأدب القومى . ولعله يشعر حين يبحث وحين يدون آثار هذا البحث بما شعرت أنا به من أن تغير طرائق البحث تبعاً لما حدث فى أوروبا ، واتباعاً لديكارت ومن جاء بعده من الكتاب والفلاسفة ، ليس معناه إهدار تراثنا بوصفنا مصريين وشرقيين ومسلمين ، والانتقال إلى تقليد الغرب فى أدبه القومى كتقليدنا إياه فى لباسه وفى طعامه ، كما أن ابتكار طرائق جديدة فى الزراعة ليس معناه أن أترك الأرض المملوكة لى لأذهب أجيراً عند الذى ابتكر هذه الطرق الحديثة ، ولكن معناه أن أقف أنا على هذه الطرائق وأعمل على مقتضاها فى الأرض المملوكة لى . كذلك يجب أن نستعين بطرائق الغرب فى بحث تاريخنا وإقامة أدبنا ، وفى ابتكار علم يتصل بعلمنا وصناعة وتجارة تتصل بطبيعة بلادنا . عند ذلك تبقى لنا شخصيتنا ، ولا نصبح عيالاً على غيرنا ننال من فئاته وننال أضعاف ذلك من زرايته ومن احتقاره .

هذا وقد أثبتّ بعد البحوث الفرعونية الثلاثة قصتين مصريتين من واقع حياتنا الحاضرة ، نقلت حوادثهما مما شهدت دور القضاء وما قصه علىّ بعض زملائى المحامين حين كنت أشتغل بالمحاماة . وهما صورة من أدبنا القومى عن حياتنا الحاضرة . وهما من نوع الأقصوصة التى ازدهرت فى هذا الزمن الأخير . وقد نشرنا فى مجلة الهلال فى سنة ١٩٢٦ ، وإنما أذكر أن

وقائعهما نقلت إلى ما شهدت دور القضاء ؛ لأن هذه الدور تشهد من المآسى الوجدانية الشيء الكثير الذى يصلح مادة للقصص ويطبعه طابع مصرى صميم ، ويجعل الأدب الذى يستلهم مادته أديباً قومياً بكل معنى القومى . وليست دور القضاء هى وحدها مسارح الوجدانيات وغير الوجدانيات مما يلهم الكاتب القصصى ويلهم الأديب أياً كان نوع الأدب الذى يريد أن يضع ، بل إن فى الحياة المصرية فيضاً من مصادر إلهام الأدب فى مختلف نواحيه أغزر وأخصب مما فى غيرها . والمقاصير تنطوى من ذلك على مالا يقل عما تنطوى عليه الحقول والمزارع . وما على الكاتب إلا أن يستمع ويبحث ويحلل ليجد من غزارة هذا الفيض خير مادة لما يريد من صور الأدب القومى فى الحياة الحديثة .

وها نحن أولاء الآن نعرض على القارئ محاولتنا فى خمسة الفصول التالية ، راجين أن يجد شبابنا فيها مثلاً لطليعة من طلائع الأدب القومى المصرى .